كيف ننشئ أطفالنا

للدكتور فاس كيدوف

أشرف القائد العام على إحدى القلاع ليزورها فلم يُطلق من القلعة مِدفع واحد لتحيته والترحيب به . فدهش لإهمال والى القلعة ، واستهانته بخطره واستدعاه ، فمثل بين يديه ليحاكم عسكريا على تهاونه وتفريطه فى أداء واجبه .

ثم سأله القائد العام ، وهو يكاد يتميز من الغيظ : « ما بالك قد استهنت بخطرى ، فلم تحيني التحية المعتادة ؟ » فأجابه والى القلعة باسما : « لم يكن فى قدرتى أن أطلق - من مائة المدفع والمدفع — واحداً لتحيتك ، فقد منعنى من ذلك مائة سبب وسبب » فقال القائد العام : « هات ماعندك من الأسباب وقل فأنا أسمع » فأجابه والى القلعة : « أولا لم يكن فى القلعة بارود » فقال القائد العام وقد سرى عنه : « حسبك هذا عذرا ، فلسنا فى حاجة إلى سماع بقية الأسباب » .

ولقد أصاب القائد العام وأنصف فإن فى السبب الأول الذى ذكره والى القلعة غنية عما يليه من الأسباب . وثمة قضايا كبيرة يهدم كل أسبابها سبب واحد فلا تبقى لغيره قيمة بالقياس إليه . وقديما قال أبو العلاء :

« لقد أتوا بحـــديث لا يصدقه
عقل ، فقلنا عن اىّ الناس تحكونه ؟
فأخـــبروا بأسانيد لهم كذب
لم تخل من كرّ شيخ لا يُزكّونه »

والأمثلة على هذا أكثر من أن يحصيها العد ! فإن صكا — بالغا مابلغت قيمته المالية — لا يساوى درهما واحدا إذا أعوزته الإمضاءة . ومن هذه القضايا التى نحن بسبيلها ، قضية اليوم . فإن السبب الأول من أسبابها إذا نقض هدم الأسباب التالية كلها فلم يبق لها خطر . قال لى أحد الوزراء المصريين الكرام :

« لقد أسلمت ولدى إلى مربية أجنبية ، لتعنى بأمره . وتنشئه أحسن تنشئة ، وتربيه على أكمل مناهج أقرته الحضارة ، فكان لنا ما أردنا ، ولكن وهنا تأتى قصة الإمضاءة التى لاتتم قيمة الصك إلا بها . قال الوزير : « وذا صباح ، بينا كنت أسير وولدى الصغير إذا مررنا على مسجد كبير فسألته ما اسم هذه البنية ؟ » فقال : « هذه كنيسة محمدية » فكدت أخر من هول ما سمعت صعقا ! ثم قال الباشا الكبير : « منذ ذلك اليوم وأنا أحذر — كل من أعرف ومن لا أعرف — خطر المربيات الأجنبيات ، لأنهم — على ما يسدين إلى أطفالنا من فضل عناية ورعاية — يسئن إلى وطننا العزيز أبلغ إساءة ويسلفن إلى قوميتنا ضررا يتضاءل بالقياس إليه كل نفع مهما جل وعظم .

وهنا بلغنا الجرثومة من الصميم ووصلنا نقطة البحث ومدار الحديث ، وتمثلت أمام أعيننا قصة الإمضاءة التى لا خطر للصك إلا بها ، ولا قيمة لما يحويه من المال بغيرها .

لقد أجمع رجال التربية ، وأساطين علم النفس ، على أن الطفل جدير بأن يتحلى بأكرم الأخلاق وأنبل الصفات — منذ نشأته — وتواصوا بتثقيفه وتكميله ، وتحبيب العلوم والفنون والآداب إلى نفسه بكل وسيلة شائقة مغرية . فإذا تم لهم ما أرادوا ، فقد كتب الصك وفيه الرقم الذى تريد ، ولم يبق إلا أن يُمضى ، والإمضاءة هى كل شىء فى الصك ، أوعلى الأصح الأدق : هى الشىء الذى لا تتم قيمة الصك إلا به .

نعم يبقى شىء نحرص عليه جاهدين ونتثبت منه مستوثقين ، وهو : « على أى أساس نشىء الطفل ؟ تنشئة عربية ، أم تنشئة أجنبية ؟ وهل قيد فى دفتر مولودينا نحن أبناء العرب وارثى تاريخهم وتراثهم وأمجادهم ؟ أم أثبت فى دفتر مولودى غيرنا من الأمم ؟ » .

فإن كانت الأولى فهو من أبنائنا البررة الكرام العاملين على إعزازنا ورفقتنا . وإن كانت الأخرى قيدناه فى دفتر الوفيات وضرعنا إلى الله — سبحانه — أن يجعله فرطاً سالحاً ويعوضنا خيراً منه ، ويلهمنا الصبر والسلوان ويعزينا عن فجيعتنا فيه أحسن العزاء ، ولاغرو أن نتكله حيا فقد تكل الشريف الرضى بعض رفاقه الغادرين أحياء فقال مبدعاً :

« أحيا إخاءكم الممات ، وغيركم جرّبتهم فتكلتهم أحيـاء
إلا يكن جسدى أصيب فإننى قسّمته فدفنتـه أجزاء »

* * *

رحم الله تلك الأجراء العزيزة التي ندفنها كل يوم . وماذا يجدينا أن يصبح بعض أبنائنا مثال العبقرية في العالم بعد أن سُلخ منا ؟ وهل ينفعنا أن يصير أحدهم أشعر شعراء فرنسا أو إنكلترا أو ألمانيا — مثلا — فيضيف إلى تراثها صفحة خالدة مشرقة ما كان أشد حاجتنا إلى أن يزاد في أسفار أمجادنا العربية الحديثة .

وماذا يعنينا من أمر هذا وأشباهه — مهما عظم خطره وجل — بعد أن يسلخهم منشئوهم من أسرتنا العربية التي نسعى لرفعتها وعزتها مستميتين ؟ أو بأسلوب آخر . ماذا يجدي علينا أن تصبح بلادنا أغنى بلاد العالم وأوفرها قصوراً وأعظمها مصانع مادام أبناء البلاد لا يملكون من هذا كله شيئاً .

فمسألة المسائل الجوهرية — إن صح هذا التعبير — هي أننا نريد أن يكون كل إصلاح نقوم به في بيت نملكه لا في بيت نكتريه . وفي طفل ينتسب إلينا بعروبته وشمائله لا في طفل ينتسب إلى غيرنا من الأمم بربطانته ومواهبه . وجماع القول : إننا نريد أن نسخر قواتنا كلها لخدمتنا ورفعة مجدنا — نحن أبناء العرب — لا لخدمة غيرنا من الأمم وإضافة صفحات إلى أمجادهم ولن تعنينا ساقية تدور في بلادنا ، مادامت تسقي أرضاً لا نملكها وتزيد في ثروة لا تعود على مواردنا بفائدة . كما لا يعنينا أن يصبح أبناؤنا سادة العالم ومناط فخاره ، ومبعث مجده . ما داموا لا يمتون إلينا بصلة ولا تربطهم بنا آصرة .

ماذا ؟ إن الأمر أكبر من هذا كله فإن خطر هؤلاء الأبناء والأخوة لن يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى ما هو شر منه فإنهم بلا شك عامدون — وقد رأينا مصداق ذلك في الكثيرين منهم — إلى تراثنا فمُحَقِّرُوهُ ، وإلى أكرم تقاليدنا فحاربوها ، وإلى أنبل مزايانا الشرقية فمُفَوِّقون إليها أخبث السهام وأفتك الأسلحة .

وقديماً قال أبو العلاء :

« ربيت شبلا فلما أن غدا أسدا عدا عليك فلولا ربه أكلك »

ولكن اللوم علينا فقد تنكبنا قول المري وخالفنا نصيحته التي أوصانا بها في تلك القصيدة البارعة حين قال :

« فلا تعلم صغير القوم معصية فذاك وزر إلى أمثاله عدلك
فالسلك ما استطاع يوماً ثقب لؤلؤة لكن أصاب طريقاً نافذاً فسلك »

وقد شكا الشاعر العربي من عقوق ولده فقال :

« وربيته حتى إذا ما تركته
فتى الحرب واستغنى عن الطر شاربه
تعمد حقي ظالما ، ولوى يدي لوى يده الله الذي هو غالبه »

ولن نتمثل في هؤلاء الخارجين عنا إلا بقول ابن الرومي :

« وإخوان تخذتهم دروعاً فكانوها ، ولكن للأعادي
وخلتهم سهاما صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن عن ودادي »

ورحم الله القائل :

« أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني »

إلى هنا قد بلغنا المدى — فيما نظن — وأدركنا أن أول واجب علينا وعلى كل من يتصدى لتنشئة أطفالنا أن ينشئهم عربا قبل كل شيء . وبعد كل شيء ، وعلى الرغم من كل شيء . فما هي الوسيلة إلى بلوغ هذا المأرب الجليل !

الأمر على خطورته ، غاية في اليسر فإن مفتاح كل جنسية من جنسيات الأمم المختلفة الأخرى هو لغتها التي تحوي تاريخ أهلها وتراثهم الأدبي الحافل ، ومزاياهم وشمائلهم النادرة وما إلى ذلك من ضروب الفضائل والأمجاد فليكن أول هدف يفوق إليه المصلحون سهامهم المسددة أن ينشئوا أطفالنا على الفصحى لنؤمن أولا أن السجل قد كتبهم في دفاتر مولودينا ، ولم يقيدهم في دفاتر وفياتنا ، فإن الطفل إذا أُنشيء على لغة أجنبية انسلخ عن قوميته ، وإذا أُنشيء على العامية انسلخ عن شعوب الشرق العربية كلها ، وأصبح بمعزل عن أسرته العظيمة المنتشرة في أقطار تلك الامبراطورية الفكرية العربية الشاسعة . وأن كل تهاون — بالغ ما بلغ من التفه — بهذا المبدأ الأقدس الأسمى هو إساءة وقد كنت أقول « إجرام » في حق الوطن العربي الخالد .

لقد حدثتنا الأساطير أن مصدر قوة « شمشون الجبار » كانت في شعره . قالت الأسطورة . فلما قص أعداؤه شعره — بعد أن فطنوا إلى هذا السر — وهن الجبان واستكان . وقد حدثنا

التاريخ الصادق الأمين وقصت علينا حقائق الحياة وعبرها أن شعر نحشون يتمثل فى كل أمة — إذا فحصنا عنه — فى لغتها فإن قص هذا الشعر ، وهذه اللغة ، وهنت الأمة فى أثره وضاع خطرها وتفككت أواصرها الوثيقة .

ومتى أقررنا ذلك ، وجب علينا أن نمهد لهذه الغاية الجليلة وسائلها ونعبد لها طرائقها ونيسر للطفل مناهج العربية واضحاً لا عوج فيه ولا أمتا ، مستعينين على ذلك بكل أساليب التربية الصحيحة ، ومغرياتها الرشيدة على الاتسمح فى إثبات لفظة عامية أو عجمية دخيلة لايقرها اللسان العربى ، ولا تواثم أساليب الفصحى ، فإن كل خطأ فى ضبط الكلمات التى نقدمها لأطفالنا ، وكل تقصير أو إهمال فى تحرى فصاحتها والتثبت من صحتها جناية على لغتنا أى جناية وتعويق لنهضتنا أى تعويق .

وليضع كل من يتصدى لتعليم الأطفال أو التأليف لهم نصب عينيه ، وصك أذنيه وملء ضميره وجهد حبه للخير أن كل خطأ ينطبع فى أذهانهم وكل وهم أو زلل يعترض سبيلهم إنما هى فى الحقيقة مزالق أو حفر يتردى فيها الطفل الوادع المسكين وليس له من ذنب فى تردية إلا وثوقه بكفاية معلمه وأمانة أستاذه الذى أبى قصوره أو تقصيره إلا أن يحقق قول أبى العلاء

« ما الناس إلا سالك مسترشد وأخ — على غير الطريق — يدله »

ولن ينفر التاريخ إثم من يتصدى لتعبيد الطرق للعابرين إذا عرّضهم للمخاطر والتلف ، ولن تشفع له جهوده العظيمة وحسناته التوالية فى هذا الجرم الشائن

أما بعد ، فليأذن لى القارئ متفضلا أن أصرخ — قبل أن أختم هذه الكلمة — صرخة مدوية منبعثة من الأعماق فى وجه كل من يتصدى لوضع كتب لأطفالنا ممن لا يدينون بهذا المبدأ الأقدس الأسمى ، فيملأها ركاكة وأغلاطا ويجنى بذلك على نهضتنا عابثا أو جادا ، عامدا أو غير عامد ، أكبر جناية يسجلها تاريخ عزتنا ، ويدونها سجل قوميتنا ، ويقبح جانبها كل غيور على الاصلاح ، ويلعن جارمها كل محب للعرب منتصر للعروبة .

ألا هل بلّغت ، اللهم فاشهد .

كامل كيلانى

وحى الشرق

للاستاذ محمود غنيم

مهدَ الهدى ومشابةَ الأقمار
نورُ البصائرُ أنت والأبصارِ
فيكَ الشرائعُ والشموسُ تلاقتا
فتلاقت الأنوارُ بالأنوار
لله سر فى اختيارك مهبطاً
للوحى يا مُستودعَ الأسرار

لمسوح عيسى فوق أرضك خطرةٌ وعصا الكليم وبردة المختار
وضعت شرائعك السماء وأين من وضع السماء نتائجُ الأفكار ؟
أبصرت غيرك مستمراً مجدُهُ لكن مجدكَ أنت غيرُ معار
مجدٌ بأسباب السماء تعلقت أسبابُهُ صنعته كف البارى

* * *

قالوا الحضارة قلت أزهر نبتها فى الشرق قبل منابت الأشجار
أرض ينابيعُ البيان تفجرت من جوفها قبل النمير الجارى
سحر الطبيعة والبيان تسابقا فيها سباق الخيل فى المضمار
تتطامنُ الأيامُ إن مرّت بما ضمّتْ جوانبها من الآثار

* * *

هذا أديمُ الله خصّ برسله وبيوته القدسية الأحجار
فى كل عام للحجيج تمسحٌ بالقدس أو بالبيت ذى الأستار
الشرق مهوى كل وجه ساجدٍ لله لا للقوت والدينار
وإذا النفوس عرين من دين ومن خُلُق فليس لهنّ أىُّ قرار
ليس السلام برائج فى عالم بارت به الأرواح أىّ بوار
وتقطعت بين السماء وبينه شتى الصلات تقطع الأوتار
الغرب سار على هدى أطماعه فتعثرت قدماه أىّ عِثار
أم سرت فى جنح ليل مظلم قد ضل فيه النجم قبل السارى
تبكى حضارتها بملء جفونها وتئن تحت جدارها المنهار
قل للأولى ضلوا وضلت فلسفهم فى اليمّ شرعُ الله خيرُ منار

محمود غنيم